إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦﴾

التفسير: أي من تاب منهم بعد تنفيذ العقوبة فيه وحاول إصلاح نفسه، فليعلم أن الله تعالى كثير المغفرة واسع الرحمة.

قال بعض الفقهاء إن هؤلاء إذا تابوا فيُعفَون من العقوبة كلها، بينما قال البعض الآخر إنما يُعفَون من العقوبة المتعلقة بشهادتهم وفسوقهم فقط، أي إذا حكم القاضي بأن فلانًا نادم على خطئه حقًّا وأنه قد أصلح نفسه فيمكن أن تقبل شهادته بعد ذلك، كما سيخرجه الله تعالى بإذنه من زمرة الفاسقين. (روح المعاني)

وعندي أن الرأي الأخير هو الصواب.. أي أنه لن ينجو من العقوبة البدنية رغم توبته، أما العقوبات الأخرى فيمكن أن يُعفى عنها إذا ثبت أنه قد أصلح نفسه فعلاً.

لقد اتضح من هذه الآية أنه لا بد من تنفيذ العقوبة على بعض الذنوب، لأن العقوبة ضرورية لإقامة التمدن. إذا ندم المرء على فعلته نجّاه الله تعالى من العقاب يوم القيامة ويقبل توبته، ولكن هذا لا يعفيه من العقوبة الدنيوية لأنها في يد العباد.

وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ

﴿٩﴾ وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

يدرأ: درَأه: دفَعه (الأقرب)

التفسير: أي أن الذين يتّهمون زوجاتهم بالفاحشة وليس لديهم شهود آخرون إلا أنفسهم، فليعملوا في هذه الحالة أن الزوج سيشهد أربع مرات أنه قد رأى امرأته تزني وأنه صادق في هذا القول. ثم يقول في المرة الخامسة إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم بعد ذلك ستحلف المرأة أيضا أربع مرات وتقول إن هذا الشخص يكذب، ثم تقول في المرة الخامسة إن غضب الله عليها إن كان هو من الصادقين. وبعد هذا الحلف من الطرفين سيُفصل بينهما.. أي سيتم الخُلع بينهما.

أما إذا قذف الرجل زوجته، ثم لم يأت بالشهود، و لم يقُمْ باللعان أيضًا، فسينفذ فيه الحد.. أي يُجلد ثمانين جلدة. أما إذا قام باللعان فلا حد عليه.. أي سينجو من ثمانين جلدة. ولو قامت المرأة أيضًا باللعان فلن تثبت عليها تهمة الزنى، وسيُعَدّ أمرهما سواء.

ولا يتم اللعان في مكان خفي، بل لا بد أن يحلف الزوجان أمام الناس، ولا بد (أوّلاً) أن يحلف كل من الملاعِنَين، و(ثانيا) في مكان له حرمة، و(ثالثا) يجب تحذيره قبل أن يلعن على نفسه بأن يفكر جيدا قبل الإقدام على هذه الخطوة، لأن لعنة الله إذا نـــزلت على أحد دمرته.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَولا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي لولا أن رحمة الله تعالى أخذت بيدكم ولولا أنه قد حافَظَ على شرفكم بمثل هذه الأحكام لصرتم من الهالكين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

الإفك: الكذب (الأقرب).

عصبة: العصبة والعصابة: الجماعة من الرجال؛ وقيل: العشرة؛ وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين (الأقرب، وفتح البيان)

التفسير: تتحدث هذه الآية عن تلك الحادثة الشهيرة التي وقعت مع أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – حين تخلّفت عن باقي القوم في غزوة بني المصطلق، فرماها المنافقون بتهمة قذرة شنيعة جدًّا.

وبيان ذلك أنه كان من عادة الرسول ﷺ أنه كلما خرج في سفر اصطحب معه بعض أزواجه. ما كان ﷺ يأخذهن بالتناوب، بل كان يقرع بينهن، فمن خرج سهمها اصطحبها. فخرج سهمُ عائشة – رضي الله عنها – عند غزوة بني المصطلق، فاصطحبها النبي ﷺ.

وعندما كان راجعًا من الغزوة بات في مكان قريب من المدينة. وأرادت عائشة بالليل قضاء حاجتها، فخرجت بعيدا عن الجيش، وعندما عادت عرفت أن قلادتها قد انقطعت وسقطت، فرجعت إلى ذلك المكان تبحث عن قلادتها، وبينما هي تبحث حان رحيل الجيش. وأمر المسؤول عن القافلة بوضع هودجها على الجمل ظنًّا منه أنها جالسة داخل الهودج إذ كانت في تلك الأيام نحيفة جدا. فلما رجعت وجدت القافلة قد رحلت، فحزنت حزنا شديدا. ثم فكرت أن القوم لا بد أن يرجعوا إلى ذلك المكان إذا علموا بتخلفها، فجلست هناك على الأرض. فغلب عليها النوم فنامت. وكان الرسول ﷺ قد ترك أحد صحابته اسمه صفوان بن المعطل

ليتفقد المكان الذي بات فيه الجيش إذا طلع الصبح، ليأتي بما قد سقط من متاع القوم. فبينما هو يتفقد مكان الجيش بعد طلوع الصبح إذ رأى امرأة نائمة. فاقترب منها فعرف أنها عائشة. تقول عائشة رضي الله عنها بينما أنا نائمة إذ سمعت صوت "إنا لله وإنا إليه راجعون". وكان حكم الحجاب قد نـــزل، ولكنني كنت نائمة في تلك البرية وكان وجهي مكشوفًا فعرفني هذا الصحابي لأنه كان قد رآني قبل الحجاب، فقال بصوت عال "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فاستيقظت على صوته. ثم أناخ صفوان بعيره قريبا من عائشة دون أن يتكلم، فركبت الجمل، فأخذ الصحابي خطامه يمشي إلى المدينة. فلما بلغا المدينة أشاع عبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه بأن عائشة رضي الله عنها قد تخلفت – والعياذ بالله – قصدًا وأنها على صلة مع صفوان. وشاعت هذه الإشاعة على نطاق واسع حتى اشترك بعض الصحابة أيضا مع الذين كانوا وراء هذه الأراجيف. وهؤلاء الصحابة هم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش التي كانت أختًا لإحدى زوجات الرسول ﷺ.

أما عائشة فأصابتها صدمة شديدة لتخلفها عن القوم وحيدةً في تلك السن الصغيرة في صحراء موحشة في ظلام الليل. فمرضت بعد وصولها إلى المدينة. وبلغت الرسولَ ﷺ الأراجيف التي أشاعها المنافقون ضد عائشة، ولكنه لم يسألها عنها بسبب مرضها. وازدادت الأقاويل شدة يومًا فيومًا. تقول عائشة: كنت أستغرب أن أرى الرسول ﷺ يأتي إلى البيت حزينًا ولا يتكلم معي، وإنما يسأل الآخرين عن حالي ويخرج. فاستأذنت عائشة الرسول ﷺ وذهبت إلى بيت أبيها.

وذات يوم خرجت مع إحدى قريباتها لقضاء الحاجة إذ لم تكن الكنف قد بُنيت في البيوت في تلك الأيام. فأخذت قريبتها تلوم ابنها مسطح. فقالت عائشة: لم تقولين هكذا؟ قالت: لم لا ألومه وقد يتكلم بكذا وكذا؟ ويبدو أن تلك السيدة كانت تتحيّن الفرصة لتخبر عائشة بما حدث. فلما سمعت عائشة – رضي الله عنها – حديثها أصيبت بصدمة شديدة، ووصلت إلى البيت بصعوبة، وعاد إليها مرضها واشتدّ. فقالت لوالديها: ما هذه الحكاية؟ ولِمَ يتكلم الناس بمثل هذا الكلام؟ فهدّأت أمُّها من روعها وقالت: ليس هذا بأمر غريب بين الضرائر، فلا تحزني.

ولكن عائشة أخذت تبكي وتبكي و لم تستطع النوم حتى الصباح. ثم لم تزل تبكي منذ الصباح حتى الظهر. فجاء الرسول ﷺ وسأل عن حالها وخرج. ثم دعا عمرَ وعليا وأسامة بن زيد واستشارهم في الأمر. فقال عمر وأسامة: إن هي إلا أراجيف أشاعها المنافقون ولا حقيقة فيها. أما علي ﷺ فكانت في طبعه حدة، فقال: مهما يكن، فلست يا رسول الله، بحاجة إلى امرأة قد رُميت بهذه التهمة. وأضاف قائلا: اسألْ خادمتها تصدُقْك القول. فقال الرسول ﷺ لبريرة: هل رأيت في عائشة شيئًا مريبًا؟ قالت: لم أر فيها عيبا إلا أنها لصغر سنها تنام عن عجينها وتأتي الماعز وتأكل العجين. فخرج الرسول ﷺ وجمع أصحابه وقال: من ذا الذي يريحني من هذا الشخص الذي يؤذيني؟ وكان يقصد عبدَ الله بن أبي سلول. فقام سعد بن معاذ زعيم الأوس وقال: إذا كان هذا الشخص من قبيلتنا ضربنا عنقه، وإذا كان من الخزرج فنحن مستعدون لقتله أيضا. وتنبّه الشيطان الذي يتربص بالناس لإيقاع الفتنة بينهم، ووجد الفرصة سانحة. فثارت حمية الخزرجيين الذين كانوا غافلين تمامًا عن مدى وطأة صدمة الرسول ﷺ، فقام منهم سعد بن عبادة وقال لسعد بن معاذ: لا تقتدرون على قتل أحد منا ولن تقدروا على ذلك. فقام الواحد من طرف آخر وقال سنقتله وسنرى من ينقذه من أيدينا. واحتدّ الخصام. كان الأوس يقولون: سنقتل من آذى رسول الله ﷺ، وكان الخزرج يقولون: إنكم لا تقولون هذا الكلام عن إخلاص وحسن نية، إنما لأنكم تعلمون أن هذا الشخص منا. كان كلا الفريقين يحبّان الرسول ﷺ، ولكن الشيطان فتنهم، فأخرجوا السيوف من أغمادها. وبوسع كل إنسان أن يدرك مدى خطورة الموقف. فمن ناحية كان الرسول ﷺ في أذى شديد، ومن ناحية أخرى كاد المسلمون أن يضرب بعضهم رقاب بعض. فقام الرسول ﷺ بتهدئتهم بصعوبة.

ثم دخل البيت ووجد عائشة تبكي. فقال لها: هل سمعت ما يقول الناس؟ فقالت نعم. قال: إن الإنسان ضعيف. فإن كنتِ قد ألممتِ بشيءٍ فاستغفري الله تعالى، وإن كنت بريئة فسيظهر الله براءتك. فنظرت عائشة إلى أبيها وقالت له: أجِبْ رسول الله. فقال: أنا لا أعرف جوابا. فقالت لأمها: أجيبيـــه. فقالت: ليس

عندي أي جواب. تقول عائشة: لما سمعت قولهما توقفت دموعي فجأة وقلت في حماس شديد: لو قلت لكم إن هذا الخبر باطل فلن تصدّقوني، ولو قلت إنه حق فسأكذب. فلا أقول لكم إلا ما قال يعقوبُ أبو يوسفَ عليهما السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ﴾. فتركت مكاني وجئت إلى السرير، فطرأ على الرسول ﷺ ما يطرأ عليه في حالة الوحي. فأنـــزل الله تعالى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.. أي أن الذين لفّقوا هذه الفرية الخطيرة هم طائفة منكم، ولا تحسبوا أن هذه التهمة تؤدي إلى فساد بل هي خير لكم في الواقع، إذ أدت هذه التهمة إلى نـــزول العقوبات للذين يرمون الآخرين كذبًا وتيسرت لكم بسببها تعاليم حكيمة. سينال كل واحد من المجرمين وبال إثمه، أما الذي هو أكبر مسؤول عن الجريمة فله عذاب عظيم.

لما نـــزل هذا الوحي على الرسول ﷺ استنار وجهه وقال لعائشة: أَبْشِري فإن الله تعالى قد أنـــزل براءتك. فقالت أم عائشة لها: قُومي واشكري رسول لله ﷺ. فقالت: إنما أشكر ربي الذي برّأ ساحتي. (السيرة الحلبية، الجزء الثاني ص ٢٠٨-٣١٤: غزوة بني المصطلق، والسيرة النبوية لابن هشام الجزء الثالث: واقعة الإفك)

لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾

التفسير: أي لا شك أن الله تعالى قد أنـــزل أحكامه بشأن هذه المسألة فضلا ومنةً عليكم، ولكن كان من واجبكم أن ترفضوا هذا القول بمجرد سماعه وتقولوا:

لا أساس لهذه الأباطيل، إذ من المحال أن يكون المؤمنون والمؤمنات هكذا، وإذا كان الذين اتهموها صادقين فلم لم يأتوا بأربعة شهداء؟

كانت عائشة – رضي الله عنها – قد تخلّفت عن الجيش مضطرة، وكان صفوان قد تُرك وراء الجيش لضرورة حربية، فاتهامها بالتهمة الشنيعة بدون أي شهود ليس إلا من عمل الكذابين المفترين. فتذكّروا من اليوم أن الذين لا يأتون بأربعة شهداء في المستقبل فأولئك عند الله هم الكاذبون. وإذا رأى المرء مَن يرتكب هذه الفعلة و لم يكن معه شهود آخرون، فمهما ادعى الصدق، وحتى لو حلف في بيت الله الحرام، فيُعتبر هو المفتري الكذاب، لأنه لم يأت بأربعة شهداء حسب حكم الله تعالى.

لقد تبين من ذلك أنه ليس من حق أحد أن يقول عن الذي لا يستطيع أن يأتي بأربعة شهداء: لعله صادق؛ ذلك لأن الله تعالى يعدّه كاذبًا؛ ومن عدَّهُ الله كاذبًا لا يحق لأحد أن يعتبره صادقًا.

نستنبط من هذه الآية أن المؤمن إذا سمع شيئًا عن غيره فمن واجبه الأول أن يحسن به الظن، ذلك لأنه لو ثبت فيما بعد أن ما قيل عن أخيه كان صحيحًا فإنه ينال ثواب حسن الظن به، وأما إذا ثبت أنه كان كذبًا فتصبح جريمته مزدوجةً، لأنه (أوّلاً) أساء به الظن و(ثانيًا) لأنه هتك الشريعة باتهام شخصٍ بريء. إن الشريعة تأمرك أنك إذا سمعت سوءًا عن أحد فعليك أن تحسن به الظن، وتكذّب من جاءك بهذا الخبر، لأنه قد مسّ بشرف الآخر؛ ولكنك إذا صدّقته على الفور واعتبرت المتهَم مجرمًا فقد أسأت الظن. وإذا كان العيب الذي اتُّهم به مما قد وضع الشرع لإثباته طريقًا خاصًا للشهادة، فإن من يعيبه لن يُعتبر وحده مجرمًا فحسب، بل إن من يصدقه ويؤيده أيضا يُعتبر مجرمًا. وفي مثل هذه الحالة يأمرنا الشرع أن نعتبر الشخص المقذوف بريئًا ونكذّب من يعيب الآخر لأن جريمته قد ثبتت.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

أفضتم: أفاض القوم في الحديث: اندفعوا وأسرعوا وأخذوا فيه (الأقرب).

تلقَّونه: تَلقَّى الشيءَ منه: تَلقَّنه (الأقرب).

هَيِّنٌ: هانَ الأمرُ على فلان: سهل (الأقرب).

التفسير: أي أن اتهام القوم الذين خرجوا ليضحّوا بأنفسهم في سبيل الله تعالى إثم خطير، ولولا أن الله تعالى يريد نجاتكم، أيها المسلمون، في الدنيا والآخرة لعاقبكم لاقترافكم هذا الذنب عقابًا شديدًا. إذ كنتم ترددون بألسنتكم الأقاويل التي سمعتموها من الآخرين وتشيعونها، مع أنه لا علم لكم بها، وظننتم أن ترديدها ضد الذين هم في خدمة القوم أمرٌ هيّنٌ، مع أنه كان جريمة شنيعة عند الله تعالى. لِمَ لم تقولوا بمجرد سماع هذا البهتان أنه لا يليق بنا التفوّه بمثل هذه الأمور؛ وأن على صاحب هذه الأقاويل أن يأتي بالشهود ويُثبت ما يقول؟ لا يحقّ لنا أن نسمع هذه

الأقاويل ثم نشيعها، إنما هي بهتان عظيم قد رُمي به بعضنا. فالله يعظكم أن لا تتفوهوا بمثل هذا الكلام في المستقبل إن كنتم مؤمنين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

تشيع: شاع الخبر يشيع: ذاعَ وفشا (الأقرب).

الفاحشة: الزنى؛ ما يشتدّ قبحُه من الذنوب؛ وقيل: كل ما نهى الله عنه (الأقرب).

التفسير: يخبرنا الله تعالى هنا أن الخوض في مثل هذا الحديث يجعل الناس جريئين على الفاحشة، لأن الشباب إذ سمعوا أن كبارهم أيضا قد يقعون في مثل هذه الأمور فإنهم يتجرؤون على ارتكابها. وليس هدف عقوبة هذه الجريمة حمايةَ شرف الفرد فحسب، بل هدفها حماية شرف المجتمع وأخلاقهم كلهم.

يتضح من هذه الآية أن خوض الإنسان في مثل هذه الأقاويل يجلب عذاب الله تعالى. ومع ذلك نجد الكثير يسمعونها ثم ينقلونها إلى الآخرين، وعندما يُسألون يقولون لقد تحدثنا بها دون قصد. بينما يصرح الله تعالى هنا أن مثل هذا الكلام يجعل الإنسان عرضة لعذاب الله تعالى. لذا لا بد لنا من تجنب هذا الإثم العظيم فلا نتفوه بمثل هذا الكلام أبدا.

لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية حقيقة عظيمة من حقائق "علم النفس" وهي تمثّل برهانًا عظيمًا على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى. ذلك أن "علم النفس" لم يكن له وجودٌ في الماضي، إذ بدأت البحوث بهذا الصدد في القرن التاسع عشر، ثم تطورت كعِلمٍ من العلوم في القرن العشرين. والحقيقة التي بيّنها القرآن الكريم في

هذه الآيات هي أنه يجب تجنب ذكر الأمور السيئة في المجالس وإلا فإن تلك السيئات ستفشو في المجتمع بكثرة. لا شك أن أكثر الناس في الدنيا يكرهون أعمال السرقة والسطو، ولكنها – في رأيي – لو ذُكرت بكثرة بين الناس لرأوا بعد فترة وجيزة أن حالات السطو والسرقة قد ازدادت بشكل ملحوظ. فمثلا تجد عندنا في الهند أن بعض كبار الشرفاء القاطنين في محافظات "غجرات" و"شيخوبوره" و"غوجرانواله" خاصة يصلّون الخمس والتهجد، ومع ذلك يسرقون جواميس الآخرين ويأتون بها إلى بيوتهم دون أن يشعروا بأنهم قد ارتكبوا أمرًا سيئًا. فذات مرة سُرقت خيلٌ لي، فأرسل إليّ شخص كان يقوم بالسرقات مع اللصوص الآخرين قبل انضمامه إلى الجماعة، فقال لي: اسمح لي أن ألقّن أهلَ هذه المنطقة كلها درسًا لن ينسوه أبدًا. فقلت لرسوله: قُلْ له: لقد وفّقك الله تعالى للتوبة في هذا السن الكبير، فالأفضل أن تثبت على توبتك ولا تنكثها، أما الخيل فسيعطينا الله تعالى غيرها. فثبت من هنا أن أهل بعض المناطق معتادون على السرقة، بل بعضهم يعتبرونه رمزًا للشجاعة والبطولة. فمثلا كان عند بعض القبائل في منطقة "غجرات" تقليد غريب، وإن كان قد تلاشى الآن، وهو أن الآباء كانوا لا يضعون العمامة على رأس ولدهم إلا بعد أن يسرق جاموسًا ويهبها لأخته. ولو شبّ الولد ولم يكن على رأسه عمامة كان أقاربه يعيّرونه قائلين: ما أقلَّ حياءَك! لقد بلغتَ هذا السن ولم تستطع أن تسرق جاموسًا لأختك ليُلبسوك العمامة. وهكذا كانوا يدفعون كلَّ شاب إلى السرقة حتى إذا كبر أصبح سارقا للمواشي. هناك أخ من جماعتنا وهو أحمدي مخلص الآن، عندما جاء هنا لأول مرة كان معه ابن له ولم يكن على رأسه عمامة، فقالت حضرة أم المؤمنين – رضي الله عنها – لزوجة هذا الأخ خلال الحديث في البيت: لماذا لا يلبس ابنك هذا عمامة؟ قالت: لن نضع العمامة على رأسه ما لم يسرق لأخته جاموسًا، لأن هذا هو العرف في منطقتنا. وكان هذا الأخ كلما سمع هذه القصة خجل خجلا شديدًا وقال: كلا، ليس الأمر هكذا في الواقع، وإنما قالت زوجتي هذا الكلام على سبيل المزاح. ولكن الحقيقة أن هذه العادة كانت موجودة في منطقتهم، ومن أجل ذلك قالت زوجته هذا الكلام.

وذات مرة سمع جدي حضرة المرحوم مير ناصر نواب هذه القصة، فساء ظنه بأهل "غجرات" جدًّا حتى إنه قال في مجلس كنت فيه: إن كل شخص من سكان "غجرات" سارق. فغاب عن بالي عندها قول تلك السيدة في بيتنا، فقلت: لجدي هذا غير صحيح، إذ يوجد في جماعتنا أفراد من "غجرات" وهم صالحون جدا. فقال: مهما يكن فإنهم سارقون حتمًا. وعندها أيضًا لم يخطر ببالي قول تلك السيدة في بيتنا، فذكرت لجدي أسماء بعض الأحمديين وقلت: ألا ترى أنهم صلحاء وأتقياء جدًّا. فقال جدي: إذا كانوا من غجرات فلا بد من أن يكونوا سارقين. وهنا تحول حديثنا إلى المزاح فقلت له: إن الحافظ روشن علي أيضًا من غجرات، فهل هو سارق أيضا؟ فقال: هل الحافظ روشن علي من غجرات فعلاً؟ قلت: نعم. فتردد في أول أمره ثم قال: إذا كان هو من غجرات فهو سارق أيضا. فقلت له: كيف تقول هذا بهذه الثقة؟ قال: عند أهل غجرات تقليد أنهم لا يلبسون الولد العمامة إلا حين يسرق جاموسًا ويهبها لأخته.

وليس السبب وراء هذه العادة عند سكان تلك المناطق إلا أن الناس يتحدثون بكثرة عن سرقة المواشي، فصارت سرقتها عادة شائعة بينهم وأمرًا عاديًا بالنسبة لهم. فإنهم يستاءون جدًّا إذا سمعوا أن فلانًا سرق روبية من مال فلان، ولكن لا يتولد في قلوبهم أي إحساس بالكراهة عند الحديث عن سرقة المواشي، لأنهم يُكثرون الحديث عن سرقتها. والقاعدة أن السيئة التي تُذكر بين القوم بكثرة تنتشر بينهم.

كذلك تكثر حالات القتل بين شعب "الباتان"، ولا يرون في ذلك عيبًا، لأنهم يتحدثون دائما عن أحداث القتل. يقال إن ابنًا لأحد "الباتان" كان يدرس عند معلم هندوسي، وسخط عليه المعلم ذات يوم، فأخرج الولد سيفه وأراد ضرب عنق معلمه، فهرب المعلم وركض وراءه ابن الباتان. وفي الطريق وجد أبا الولد وقال له: انظر إن ابنك يريد قتلي، فامنعه. فسبّ الأبُ المعلمَ الهندوسيَّ وقال له: ماذا تقول؟ كيف أمنعه. إنها أول محاولة منه للقتل، ويجب أن لا يفشل فيها.

إذًا، فإذا أشاع الناس بينهم فحش الكلام وذكروا السيئة ذكرا عاما، انتشرت تلك السيئة بينهم، ومن أجل ذلك نهانا الشرع عن ذكر عيوب الناس ذكراً عامًا، وأمرنا بأن نرفع الأمر إلى أولي الأمر ثم نسكت. أما لو سُمح لكل إنسان أن ينشر كل ما يسمعه من مساوئ الناس، قلّتْ شناعة تلك السيئة في القلوب وتجرأ الناس على ارتكابها. فالإسلام قد قام باستئصال السيئة من جذورها، وأمرنا – عند رؤية أمر سيّء – أن نبلّغ أولي الأمر الذين عندهم سلطة لإنـــزال العقاب، والذين بوسعهم أن يتخذوا التدابير لتربية النفوس وإصلاح القلوب؛ وهكذا لن تشيع الفاحشة في القوم، بل سيصبح سلوكهم سليمًا ويتم إصلاحهم.

فاعلموا أن نشر خبر الحسنة وإخفاء خبر السيئة ليس بأمرٍ هيِّنٍ، بل إنه يبني الأمم، أما عكسه فيدمّرها. فكلما أكثرتم من ذكر أن فلانا يضحي كثيرا وأن فلانا يصلي بخشوع وأن فلانا يصوم بكثرة، مال الناس إلى التضحية من أجل الدين وإقام الصلاة والصوم. وكلما قلتم بين الناس إن القوم أصبحوا يكذبون ويخونون ويسرقون ويظلمون مالت قلوبهم إلى ارتكاب هذه السيئات. ومن أجل ذلك قد علّمنا القرآن الكريم أنكم إذا رأيتم أحدًا يعمل خيرًا فانشروا ذكره كثيرًا، وإذا رأيتم عيبًا في أحد فاستروه. ألا ترى أن القطة إذا تبرزت غطت برازها بالتراب، فكم بالحري للإنسان أن لا يشيع عيب غيره بل يستره ويمتنع عن ذكره للآخرين، وإلا تفشّت تلك السيئة كالأمراض المعدية بين باقي أفراد المجتمع، وخاصة بين عائلة مَن يشيعها حتمًا، لأن القاعدة أن المرء يحتقر الشيء الذي يراه بكثرة ويستهين بما يسمع عنه أن الناس يرتكبونه بكثرة. وعليه فإن السيئة التي يرد ذكرها في حديث القوم بكثرة تبدو هينة عليهم، وإذا كثرت مثل هذه التهم في المجتمع و لم يبال الناس في ترديدها بشرف الآخرين فلا بد أن يستهين بها القوم، وبالتالي يعتبرون ارتكابها أمرًا عاديًا. ولذلك يقول الله تعالى إنكم إذا فعلتم ذلك و لم تضعوا الحد لهذه الأراجيف فإن الناس سيستهينون بهذه السيئات وبالتالي يرتكبونها بكثرة؛ فلا تسمحوا بإشاعة هذه الأمور.

وقد نبّهنا رسول الله ﷺ أيضا إلى هذه الحقيقة فقال: "من قال هلك القوم فهو أهلكهم".*

لقد أخطأ البعض في فهم هذا الحديث، فقالوا كيف يمكن أن يهلك القوم كلهم إذا قال أحد: هلَك القوم؟ ولأن هؤلاء لم يفهموا هذا الحديث فهمًا صحيحًا فقالوا أن الحديث لا يقول: "فهو أهلَكَهم"، بل يقول: "فهو أهلَكُهم".. أي أنه أكثرهم هلاكًا. والحق أن المعنى الذي يذكرونه لا يكون صحيحا في بعض الحالات. و الواقع أن القائلين بهذا لم يفهموا نفسية الشعوب. إنهم لم يدركوا أن اليأس إذا خُلق في قومٍ حُرموا القيامَ بإنجازات عظيمة. إن الزعيم الحكيم لا يخلق القنوط في قومه أبدًا ولا يجعلهم يائسين من الرقي في المستقبل، لأنه إذا سرى القنوط في قلوب القوم هلكوا. فمثلاً ترى أن المسلمين لما ظنوا أنه من المستحيل عليهم أن يزيدوا على ما بينه أسلافهم من تفسير القرآن الكريم، أصابهم الانحطاط من حينه، فغارت معرفتهم وحُرموا من العلوم السماوية لدرجة أنه لما ذكر سيدنا المسيح الموعود عليه السلام معارف القرآن الجديدة، كما فتح الله على يدي أنا أيضًا أسرار القرآن الجديدة، قال المسلمون إنه تفسير بالرأي. مما يعني أنهم بعدوا عن أسرار المعرفة بعدًا عظيمًا حتى اعتبروا الأمور التي هي من صميم الإسلام كفرًا، وبدت لهم معارف القرآن إلحادًا. وليس ذلك إلا لأنهم قالوا للقوم إنه من المحال أن يرتقي المسلمون أكثر مما سبق، فلن يولد بعد ذلك من يفهم القرآن أكثر من الأولين. فكأنهم قالوا للقوم: لقد هلك قومنا و لم يبق بينهم حيٌّ واحد يستنتج من القرآن الكريم مسألة جديدة. فكانت النتيجة أن الناس تركوا التدبر في القرآن الكريم وامتنعوا عن إمعان النظر في الأحاديث، وقالوا ما دمنا لا نستطيع أن نستنتج أمرا جديدا من القرآن الكريم ولا من الحديث فما الداعي للتدبر فيهما، إذ تكفينا التفاسير السابقة. وكانت هذه نتيجة منطقية للفكرة القائلة إن استنتاج أمر جديد

* نص الحديث الذي وجدناه هو كالآتي: قال رسول الله ﷺ: "إذا قال الرجل: هَلَكَ الناسُ، فهو أَهْلَكَهم." (مسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن قول هلك الناس) *(المترجم)*

من القرآن الكريم مستحيل الآن، إذ يكفينا ما كتبه الرازي وأبو حيان وغيرهم من المفسرين.

ثم اشتدت بهم هذه المأساة لدرجة أنه قبل عقدين أو ثلاثة عقود كان بين كبار المشايخ في بلادنا من يجهل الترجمة الصحيحة لمعاني القرآن الكريم، لأنهم ظنوا أنه لا حاجة بهم لمعرفة ترجمة معاني القرآن الكريم، وإنما يكفيهم إلقاء النظرة على التفاسير القديمة إذا أمكن.

لقد حل هذا الدمار بالمسلمين لأن القوم قد جُعلوا يائسين. لقد قيل لهم أن الاطلاع على المزيد من معارف القرآن الكريم قد أصبح مستحيلاً الآن. كذلك لما قيل لهم أن الله تعالى لا يتكلم الآن ولا يحب أحدًا الآن، ولا يوالي أحدًا الآن، ولا يردّ على دعاء أحد الآن، فقدت قلوبهم بالتدريج الرغبة في التقرب إلى الله تعالى. ذلك أن الإنسان لن يرغب في الوصال بالله تعالى وفي الكلام معه وبأن يحبه الله تعالى وبأن يصير هو له، إلا إذا اعتقد أن هذا ممكن. أما إذا ظنه أمرًا مستحيلاً فكيف يمكن أن يسعى لذلك. فلما جعلهم زعماؤهم يظنون أن من المحال عليهم الآن أن يصبحوا لله تعالى ويصبح هو لهم، وقالوا: "هلَك القوم" ولم يبق في أفراد الأمة من المواهب والكفاءات ما يستطيعون به أن يحظوا بحب الله تعالى ويجذبوا فضله ويتلقوا وحيه وإلهامه، غضّوا الطرف عن هذه الأمور وأهملوها كلية، وامتنعوا عن قرع باب الله تعالى ظانين أنه مقفل، وغبيٌّ الذي يرى بابًا عليه قُفلٌ ومع ذلك يقف على عتبته وينادي صاحب البيت. ذلك لأنه إذا أُعلن عن بيت أنه قد تم إغلاقه بصورة قطعية للأبد، ومع ذلك ذهب أحد ليطرق بابه فسوف يعده الجميع مجنونًا إذ يطرق بابًا قد أُغلق نهائيًا ولا إمكانية لفتحه أبدًا. أما إذا كان هناك بيت آخر بابه مقفل ولكن نافذته مفتوحة فالجميع سيتجهون إلى النافذة لا إلى الباب. إنهم يذهبون إلى النافذة لأنها مفتوحة ولا يذهبون إلى الباب لأنه مغلق. وبالمثل لما أُغلق باب محبة الله تعالى في وجه المسلمين، وقيل لهم أنهم لن يسمعوا أي صوت من هذا الباب بعد ذلك مهما صرخوا وبكوا، فكانت النتيجة أنهم تركوا باب الله تعالى وتوجهوا إلى الأولياء والدراويش. لا شك أن هؤلاء الأولياء كانوا بمنـــزلة النوافذ

الصغيرة إزاء الله تعالى، ولكن الناس لما وجدوا هذه النوافذ الصغيرة مفتوحة ووجدوا الباب الكبير مقفلا، تركوا الله تعالى واتبعوا الأولياء والدراويش قائلين في أنفسهم: لا شك أنها نوافذ فقط، ولكنها مفتوحة على الأقل، فتعالوا نطلّ منها إلى الداخل. ولكن هل تعرف ماذا كانت نتيجة ذلك؟ لقد خلت قلوب المسلمين من حب الله تعالى والشعور بلطفه، وتلاشت الروحانية من نفوسهم، وحُرموا قرب الله تعالى، وفقدت آذانهم متعة سماع كلام الله المتجدد.

كما حصل عيب كبير في التمدن الإسلامي والسياسة الإسلامية، لما قيل للمسلمين أنه لا يجوز إدخال أي تغيير في شكل التمدن الإسلامي الذي كان في زمن الصحابة. مع أن شكل التمدن يتغير بتغير الزمن، فيكون شكلٌ للتمدن مناسبًا في زمنٍ بينما يكون شكل آخر له ملائمًا في زمن آخر. وإنما الدين الحق الذي يتسم بالمرونة، ولذلك فإن الأديان التي تأتي إلى الدنيا لتستمر فترة طويلة يمتاز تعليمها بنوع من المرونة، فيتغير شكله بتغير الظرف والزمان. لقد اتخذ التمدن الإسلامي في عهد الرسول ﷺ شكلا، أما اليوم فعليه أن يتخذ شكلا آخر. لا شك أن مبادئ هذا التمدن وأصوله ستبقى كما هي، ولكن شكله سيتغير بتغير الظروف والزمان. إنما يمكن الاعتراض لو غيرنا الأصول والمبادئ، ولكنها ستبقى كما هي، وإنما يتغير شكلها بتغير ظروف الزمان. وهذا التغير في الشكل كان جائزًا، ولكنهم لما قالوا أن التمدن الإسلامي قد بلغ منتهاه، وأنه لا مرونة في هذا القانون، فعلى الناس أن يتبعوا التمدن الإسلامي بشكله القديم، ولا يجوز لهم أن يقترحوا له شكلا جديدًا آخر؛ فكانت النتيجة أن المسلمين تركوا إعمال الفكر في القضايا التمدنية، فانقلب التمدن الإسلامي كبِركة صغيرة لا يجري ماؤها، فأسنت وتعفنت، ولم تعد جميلة جذابة كما كانت من قبل.

إذًا، فإن رسول الله ﷺ قد بيّن هنا حقيقة عظيمة من حقائق علم النفس إذ قال: "مَن قال هلَك القوم فهو أَهْلَكَهم". ولو أن زعماء المسلمين وضعوا هذا الحديث في الحسبان ولم يجعلوا قومهم يائسين قانطين، ولم يقولوا لهم لجهلهم وغبائهم أنه لا إمكانية الآن لرقيهم، لظلَّ المسلمون سبّاقين في مضمار الروحانية

وميدان الاقتصاد ومجال العلم والتقدم. لقد اشتدت المصيبة بالمسلمين لدرجة أن زعماءهم لم يقولوا بانتهاء العلوم الدينية على الأسلاف فحسب، بل أفتوا بانتهاء العلوم المادية أيضا. فقيل لهم مثلاً أنه لا يمكن الآن الزيادة على ما قاله "أبو علي ابن سينا" في علم الطب، كما تستحيل الإضافة إلى ما كتبه فلان من العلماء في علم المنطق. وهكذا أفتوا عن جميع العلوم. فكان قولهم هذا يماثل قول: "هلَك القوم"، فلا يمكن أن ينال اللاحقون ما ناله الأولون. وكانت النتيجة أن المسلمين هلكوا تماما، فلم يبق بينهم أهلُ الله ولا الفقهاء ولا القضاة ولا العارفون بالله ولا المحدثون لأنهم ختموا كل شيء على الأولين وجعلوا القوم يائسين قانطين.

خلاصة القول إن الله تعالى قد بيّن هنا حكمة لطيفة بصدد إصلاح المجتمع، وهي أنكم إذا أردتم إيقاف سيئة فعليكم إيقاف إشاعتها ونشرها. لقد قال المسيح الموعود عليه السلام في كتبه إن من خصائص القرآن الكريم أنه يضع يده على جذر كل سيئة فيستأصلها من جذورها. وهذا ما يعلّمنا القرآن الكريم هنا أيضًا، فيقول إنكم إذا أردتم إيقاف سيئة فعليكم إيقاف الاهتمام بها، وبتعبير آخر إذا أردتم إرساء حسنة من الحسنات فانشروا عظمتها وأهميتها بين المجتمع؛ فتقولون مثلا عن الصلاة: من ذا الذي يمكنه أن يترك هذه الفريضة الهامة؟ وتقولون عن السرقة: لا يمكن أن يرتكب أحد هذا الإثم الخطير. فمن يسمع هذا الكلام يدرك أهمية هذه الأمور ويأخذ الحيطة بشأنها. عليكم بإحداث تغيير في أنفسهم على ضوء هذا التعليم وسترون خلال ثلاث أو أربع سنوات فرقًا عظيمًا في مجتمعكم، وستلاحظون في أفراد الجماعة صحوة أكبر وتجدونهم أكثر عملا بالحسنات وأكثر تجنبًا للسيئات وأكثر إخلاصا وإيمانا من ذي قبل. فمثلا لو قلتم لهم: لِمَ لا يدفع البعض من جماعتنا التبرعات؟ فلن يكون لقولكم وقع قوي. أما إذا قلتم: من النادر أن تجد أحدا في جماعتنا لا يدفع التبرعات، فيدرك كل واحد أهمية التبرعات ولن يقصّر في تأديتها.

وهذه القاعدة ناجعة في كل النقائص والعيوب، ويمكن بها إصلاح جميع المفاسد. فإذا أردتم إيقاف معصية في المجتمع فعليكم إيقاف الاهتمام بها، وعلى

النقيض إذا أردتم إرساء حسنة فعليكم إشاعتها والاهتمام بها. ولكن تذكروا أنه يجب أن لا تعظّموا أحدا تعظيمًا خاصًا لأدائه الفرائض، فمثلا إذا أدى شخص فريضة الحج فلا تقولوا إنه رجل صالح جدا لأنه قد قام بالحج، ذلك لأن الحج كان فرضا عليه فأدّاه. كذلك إذا قام أحد بأداء الصلاة والصوم والزكاة فلا تثنوا عليه بوجه خاص، لأنكم إذا مدحتموه بسببها وقلتم إنه رجل بارٌ وورعٌ فسيقول الذي ليس كذلك: صحيح أنني لست بارًّا وورعًا، ولكنني مسلمٌ على الأقل. أما إذا قلتم إن هذه الأمور فرضٌ على كل مؤمنٍ، فسيدرك هذا أنه لن يبقى حتى مسلمًا عاديًا إذا ترك هذه الفرائض.

فلا تنسوا هذا الأمر أبدًا، واعتبِروا اتهام الناس بالفواحش أمرًا قبيحًا جدًّا، ولا تدَعوا مثل هذه الأقاويل تنتشر في المجتمع، وعندها سترون فيكم تغيرًا عظيمًا في فترة قصيرة، وتنجحون في مهمة إصلاح المجتمع.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

الفحشاء: الفُحْش والفحشاء والفاحشة: ما عَظُمَ قُبْحُه من الأفعال والأقوال (المفردات).

المنكر: ما ليس فيه رضى الله من قول أو فعل (الأقرب).

زكى: زكى الرجل: صلح وتنعَّمَ (الأقرب).

التفسير: الخطوة معناها القدم، ولكنها إذا استُعملت جمعًا فمعناها عند المفسرين المسلك والمذهب والأثر (فتح البيان). إذًا، فقد نبّهنا الله تعالى بقوله ﴿لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أن لا نتبع مسلك الشيطان ومذهبه وأثره، لأن الذي يتبع طريق الشيطان لا بد أن يتّبع السيئات والمنكرات، إذ إن الشيطان يحثّ دائما على الفحشاء والمنكر. ولكن تَذكّروا أن الطهارة الكاملة لا تتيسر بدون فضل الله ورحمته، وسبيلها أن تدعوا الله تعالى دائما وتسعوا لتزكية أعمالكم لأنه تعالى حين يراكم تبذلون جهدكم لتتطهروا فسوف يجعلكم طاهرين.

لقد اتضح من هذه الآية أن الشيطان لا يبرح يطارد الإنسان دائمًا. وحتى لو آمن الإنسان بالله تعالى، فإن الشيطان لا يتركه، بل يسعى لإغوائه. وكثير من الناس يقعون في خداعه رغم إيمانهم، فيتبعونه فيصبحون مرتدين فاسقين. وهذا الخطر عظيم لدرجة أنه لولا فضل الله تعالى لما استطاع إنسان النجاة منه. والسبيل لجذب الفضل الإلهي أن يستفيد الإنسان بصفة الله السميع ويطرق بابه تعالى، وإذا طرق المرء بابه تعالى واعتاد على الدعاء والابتهال فإن الله العليم بأحوال عباده والخبير بضعفهم سينفخ في قلبه قوة إيمانية يتقي بها من هجمات الشيطان وتتيسر له التزكية والطهارة.

يقال أن تلميذًا لرجل صالح مكث عنده فترة طويلة يتعلم على يده، ولما أكمل تعليمه أراد العودة إلى بلده، فقال له الرجل الصالح: أنت راجع الآن إلى بلدك، فهل الشيطان موجود في بلدكم؟ فاحتار التلميذ بسؤاله، وقال: الشيطان موجود في كل مكان وسيكون أيضًا في بلدنا الذي أنا ذاهب إليه. فقال: ما دام الشيطان موجودًا هناك فلا بد أن يعيق طريقك كلما أردت العمل بما تعلمت مني، فماذا تفعل عندها؟ قال: سأقاومه. قال الرجل الصالح: حسنًا، هَبْ أنك حاربت الشيطان ففرّ من وجهك ثم عدتَ إلى العمل وبدأت المسير في سبل التقرب إلى الله تعالى، فعاود الشيطان من ورائك وأخذك ومنعك من التقدم، فماذا تفعل إذًا؟ قال: سأحاربه وأتخلص منه وأستأنف المسيرة في سبيل التقرب إلى الله تعالى. قال: حسنًا،

لنفترض أن الشيطان يفرّ من وجهك ثانية نتيجة مقاومتك، فتستأنف جهدك للوصول إلى الله تعالى وإصلاح نفسك، مُعْرضًا عن الشيطان ومتوجها إلى الله تعالى وسائرًا على سبيل قربه، فيعاود الشيطان فيأخذك من ورائك، فماذا تفعل؟ فاحتار التلميذ وقال أنا لا أعرف، فأخبرني أنت ماذا علي فعله عندها. قال الرجل الصالح: لو ذهبتَ إلى بيت صديق لزيارته ووجدت على بابه كلبًا قويا، وإذا هممت بالدخول أتى الكلب وعضَّك من قدمك، فماذا تفعل؟ قال سأقاومه وسأضربه بعصا أو بحجر. قال: هَبْ أنه فر حين ضربته بالعصا أو بالحجر، ولكنك حين أردت أن تدخل في الدار معرضًا عن الكلب، أتاك من ورائك وأخذك من رجلك، فماذا تفعل؟ قال سأضربه أيضا وأحاول إبعاده عن طريقي لأدخل الدار. قال: لنفترض أن الكلب يهرب فتحاول أن تدخل الدار فيعود الكلب ويأخذك من رجلك، فماذا تفعل؟ قال سأضربه وسأبعده عن طريقي. قال لو ظلت هذه الحرب بينك وبين الكلب مستمرة هكذا في كل مرة، فمتى ستتمكن من زيارة صديقك، ومتى ستحقق هدفك الذي أتيت من أجله؟ قال التلميذ: عندما أرى أن الحرب بيني وبين الكلب لا تنتهي، بل يبطش بي الكلب في كل مرة، سأنادي صديقي وأقول: إن كلبك لا يتركني، فازجُرْه ليخليّ سبيلي. فقال الرجل الصالح: هذا بالضبط هو السبيل الذي عليك اتباعه ضد الشيطان أيضًا. إن الشيطان كلب لله تعالى، فإذا هاجمك مرة بعد أخرى و لم يسمح لك الاقتراب من الله تعالى، فعلاجه أن تدعو ربك وتناديه: يا رب، أريد أن أصل إليك، ولكن كلبك هذا يحول دوني، فادفعه عني حتى أصل إليك. فسيمنعه الله تعالى وتصبح في مأمن من هجمات الشيطان.

إذًا، فالطهارة الكاملة التي لا ارتدادَ بعدها ولا فسوقَ، إنما تتيسر للإنسان بفضل الله ورحمته التي تجذبها أدعيته.

هذا، وإن الله تعالى قد بيّن في هذه الآية طريقا لطيفا آخر لمكافحة السيئة. فقد بين من قبل أن اتهام الآخرين في المجالس بما لا أساس له مدمرٌ لأخلاق القوم، أما الآن فقد نبه الله تعالى المؤمنين إلى أمر آخر، فقال: أيها المؤمنون لا تتّبعوا خطوات الشيطان لأن من يتبع خطواته يقع في السيئة والفاحشة، لأن الشيطان إنما يأمر

بالفحشاء والمنكر. فقد بين الله تعالى هنا أن كل سيئة تنتشر في الدنيا لا تكون بدايتها مخيفة؛ إذ ليس من دأب الشيطان أن يحثّ الإنسان في أول مرة على ارتكاب أمر خطير جدًّا، لأن الإنسان مفطور على الحياء والخجل فلا يستعد على الفور لارتكاب سيئة مكشوفة. فمثلا لو أراد الشيطان أن يأخذه إلى هوّة الهلاك رأسًا فلن يذهب معه، أما إذا أخذه إلى الموت باللف والدوران فسيذهب معه؛ ومن أجل ذلك لا يدعوه الشيطان في أول أمره لارتكاب سيئة كبيرة بل يدعوه إلى معصية صغيرة لا تبدو معصية في الظاهر، ثم يتقدم به أكثر فأكثر حتى يدفعه إلى ارتكاب معصية خطيرة جدا، وبتعبير آخر لا يأخذ الشيطان الإنسان إلى هوة الدمار ليقول له اقفز فيها، بل يأخذه أولا بعيدًا عن داره كما يفعل الصعاليك حيث لا يهاجمون قريبا من البيوت، أو كما يفعل قَتَلةُ الأطفال فإنهم لا يقتلون الطفل قريبا من بيته، بل يقومون بمراوغته فيأخذونه أولا بالمكر بعيدا عن بيته؛ فيقولون له مثلاً: تعال أُعْطِك الحلوى؛ فإذا مشى معهم يأخذونه خارج القرية والمدينة ويقتلون الولد خنقا حين يرون أن لا أحد يراقبهم. هذا هو دأب الشيطان أيضا فهو أولا يدعو الإنسان ليخرج من حصنه الذي قد حفظه الله فيه.. أعني حصن الفطرة الصحيحة، فيخرج منه الإنسان ظنا منه أن لا بأس في ذلك، ولكنه يبتعد ويبتعد حتى تتعذر عليه العودة، فيقع في براثن الشيطان فيهلكه.

فبعد أن نهانا الله تعالى عن الاتهام الباطل قد نبّهنا الآن بأن لا تستهينوا بهذا الحكم فتقولوا في أنفسكم: ما الحرج إذا اتهمنا أحدا بالزنى؟ إنا لا نتهمه بالزنى بل ننقل الخبر الذي سمعناه؛ لأن هذا هو أسلوب الشيطان أيضا، فإنه يستدرج الإنسان أوّلاً ويخرجه من حصن الشرع والروحانية، وإذا خرج الإنسان بعيدا قتله الشيطان. فالشيطان في أول أمره إنما يدعوكم إلى ترديد ما يقوله الآخرون قائلا لكم: ما الحرج في ذلك؛ وإذا اتبعتم أمره هذا جعلكم تتفوهون بأنفسكم بمثل هذه الأقاويل، ثم يدفعكم إلى ارتكاب هذه الفاحشة؛ لذا فعليكم أن لا تتّبعوه أصلاً، وأن ترفضوه عند أول خطوة لكي تنجوا من الهلاك.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾. وليس المراد من قوله تعالى ﴿يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أنه تعالى يزكيه دونما سبب، بل المراد أن الذي صار مرضيا عند الله تعالى بسبب عمله بأحكامه تعالى فهو الذي يتخذه الله محبوبا ويزكيه.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.. أي أن من يدعوه تعالى يستجيب دعاءه، كمثل الذي يضل طريقه فينادي شخصًا، فإذا كان من يناديه يقدر على سماع صوته فلا بد من أن يجيبه؛ كذلك عندما يضل الناس الطريق المستقيم ويدعون الله تعالى وينادونه فإنه تعالى يستجيب لندائهم لأنه سميع؛ ثم إذا ناداهم الله تعالى ومشوا إليه، فإن صفة الله العليم تهديهم، وهكذا يصلون إليه تعالى.

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

لا يأتلِ: ائتلى: حلَف (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن من سبل طهارة مجتمعكم أن لا يُقسم الأثرياء منكم بأنهم لن ينفقوا على أقاربهم والمساكين المهاجرين في سبيل الله. أي لا شك أن الإنسان يتشاجر أحيانا مع أقاربه والمساكين والمهاجرين ولكن ينبغي على الأثرياء أن لا يقسموا نتيجة نـــزاع معهم أنهم لن ينفقوا على هؤلاء في المستقبل، وإنما عليهم أن يعفوا ويصفحوا رغم غضبهم، لأنهم إذا غفروا لهم، فهناك أمل بأن يغفر الله لهم.

ورد في بعض الأحاديث أن مسطحًا كان متورطًا في إشاعة الفرية التي رُميت بها عائشة رضي الله عنها. وكان مسطح ابن أخت أبي بكر وواحدًا من صحابة رسول الله ﷺ. كانت أمه امرأة صالحة وهي التي سبّت مسطح أمام عائشة في إحدى المرات، فقالت لها عائشة: لماذا تسبّين صحابيا بدريا؟ فقالت: دعي هذا الكلام، فإنه يتكلم بكذا وكذا. وهكذا تناهى خبر الإفك إلى أذن عائشة أول مرة. فلما بلغ ذلك أبا بكر ﷺ أقسم أنه لن يساعد مسطحًا وعائلته بعد ذلك، إذ كان ينفق على أهله ويساعدهم مساعدة كبيرة. (البخاري: كتاب المغازي باب حديث الإفك)

ويقول المفسرون إن هذه الآية تشير إلى هذه الواقعة (القرطبي). والحق أننا لسنا بحاجة للقول بأن هذه الآية تشير إلى واقعة معينة، إذ تتضمن هذه الآية درسًا عامًا، حيث يبين الله تعالى أن ما أمرنا به في القرآن الكريم من مساعدة الأقارب والمساكين والمهاجرين ليس أمرا مشروطا بأن ننفق عليهم إذا رضينا بهم وإلا فلا؛ كلا، بل علينا أن ننفق عليهم دائما، وإذا فعلوا ما لا يعجبنا فلا يجوز لنا أن نحلف بأننا لن ننفق عليهم بعد ذلك. أي أن المرء لو قصر في الإنفاق على هؤلاء في أيام الغضب فهذا شيء آخر، أما أن يقسم أنه لن ينفق عليهم أبدا فهذا لا يجوز، بل عليه أن يعفو ويصفح عنهم.

بيد أنه يجب أن لا ننسى أن هذه الآية تتحدث عن الإنفاق من أموالنا الخاصة وليست من الأموال العامة أو أموال الله تعالى. لو كان الأمر يخص إنفاق أموال العامة أو أموال الله تعالى فلا بد أن تعطى الأولوية للمصلحة العامة أو لحكم الله تعالى.

أما قول الله تعالى ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ فقد أوصى فيه المؤمنين وصية عامة بأن يغفروا للآخرين خطاياهم ويصفحوا لهم تقصيراتهم.

ولكن قضية العفو معقدة، حيث مال بعض الناس بشأنها إلى الإفراط والبعض الآخر إلى التفريط بسبب جهلهم. فيقول الذين ارتُكبت الجريمة بحقهم: لا بد من عقاب المجرم لكي يكون عبرة للآخرين. وأما الذين يجنون على الآخرين فيقولون: ما دام الله يغفر فعلى العباد أن يغفروا أيضًا. ولكن هذه الأقوال كلها فتاوى

مغرضة، لأن الذي يقول: على العباد أن يغفروا ما دام الله يغفر، لا يقول هذا القول إلا عندما يكون هو مجرما، ولكن إذا أخطأ أحد بحقه فلا يقول هذا الكلام أبدًا. أما الذي يدعو إلى عدم العفو وتنفيذ العقوبة فإنه أيضا لا يقول ذلك إلا إذا كان غيره قد أخطأ في حقه، أما إذا أخطـــأ هو في حق غيره فلا يتفوه بمثل هذا الكلام بل عندها يقول هو الآخر: ما دام الله تعالى يغفر فعلى العباد أيضا أن يغفروا. فثبت أن كل هذه فتاوى مغرضة، وليست الفتوى الحقيقية إلا ما هو خال من المنافع الشخصية، وهي تلك التي أتى بها القرآن الكريم، حيث يقول: إذا ارتكب أحد جريمة فعليكم أن تنظروا فيما إذا كان إصلاحه في العقاب أو في العفو. فإذا رأيتم أن العقاب سيؤدي إلى إصلاحه فعاقبوه، وإذا رأيتم أن العفو سيصلح أخلاقه فاعفوا عنه. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(الشورى:٤١).. أي أن جزاء الجريمة إنما هو بقدر حجمها، ولكن إذا عفا المرء عن المجرم رجاء إصلاحه.. أي إذا كان العفو عنه لا يؤدي إلى إفساده أكثر بل يؤدي إلى إصلاحه، فأجر الذي يعفو عنه يقع على الله تعالى. ولكن تذكروا أيضا أن الله لا يحب الظالمين.. أي أن أحدا لو عاقب إنسانا أكثر من حجم جريمته، أو عاقبه فقط لإيذائه مع أن عقله يفتي أن عقابه للمجرم يفسد أخلاقه أكثر ويُبعده عن الخير أكثر، أو إذا عفا عن المجرم مع أنه يدرك بناء على علمه الشخصي أن العفو سيجعله أكثر جرأة على الإثم؛ فكل هؤلاء ظالمون عند الله تعالى وسيحاسبهم على أفعالهم.

هذا هو التعليم الذي قدمه الإسلام بصدد الجرائم. وإن التدبر القليل يكشف للمرء مدى قدرة هذا التعليم على إرساء الأمن ومحو كل فساد ونـــزاع.

أما التعليم الذي تعرضه المسيحية فهو كالآتي: "وأما أنا فأقول لكم لا تُقاوِموا الشر، بل مَن لطمك على خدّك الأيمن فحَوِّلْ له الآخرَ أيضا." (متى ٥: ٣٩).

ولكنك لو تجولت كل بلاد المسيحية في هذا العصر لن تجد شخصًا واحدًا منهم يعمل بهذه التعاليم. وحتى لو وجدت أحدًا عاملاً بهذا التعليم فاعلم أن هذا التعليم غير قادر على إرساء السلام في العالم. إن التعليم الذي يقضي على جميع

الفتن والمفاسد ويسد الباب في وجه جميع النـــزاعات والخصومات إنما هو ذلك الذي يقدمه الإسلام، والذي يستهدف إصلاح المجرم سواء تحقق هذا الهدف بإنـــزال العقوبة على المجرم أو بالعفو عنه.

وهذا المعنى نفسه قد بينه الله تعالى في الآية التالية أيضا حيث قال في وصف المؤمنين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٥). والمحسن في العربية من يلتزم بجميع أحكام الشرع. إذًا، فقد نبه الله تعالى بقوله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أن المؤمن إنما يكظم غيظه ويعفو حين يرى أن هذا سيؤدي إلى إصلاح المجرم، أما إذا عفا عنه بدون أن يفكر في عواقب العفو فهو ليس بمحسن، لأنه لم يراع القواعد التي وضعها الشرع بصدد العقاب والعفو.

لقد وردت في الكتب بهذا الشأن واقعة رائعة للإمام الحسن ﷺ، فذات مرة سقط إناء ثمين من يد غلام له وانكسر، فبدت أمارات الغضب في وجهه ﷺ، فقرأ الغلام قول الله تعالى ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾. فقال ﷺ للغلام: لقد كظمت غيظي. فقرأ الغلام ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.. أي أن المؤمنين لا يكظمون غيظهم فقط بل يعفون أيضا، فقال ﷺ له: لقد عفوت عنك. فقرأ الغلام ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، فقال ﷺ: لقد أعتقتك، فأنت حر لوجه الله تعالى. (فتح البيان)

إذًا، فمن الجهل أن يقال في كل موطن: إن لا بد من عقاب المجرم، كما من الجهل أن يقال في كل مرة: يجب العفو عن المجرم. فإن شرعنا يأمرنا بأن نعاقب إذا كان العقاب مفيدا، وأن نعفو إذا كان العفو نافعا. فمثلا إذا كان الجيش في حرب وقصّر البعض في أداء مهامه، فالعفو عنه خطأ لأنه يجعل الآخرين يجرؤون على التكاسل والتقاعس، وفي النهاية سيدمَّر الجيش كله. ولكن إذا ارتكب المرء جريمة لا يتضرر بها إلا شخص واحد ويكون هناك أمل في أن العفو سيؤدي إلى إصلاح المجرم فالأولى أن يعفى عنه.

هناك روائي شهير يكتب بالفرنسية ويُعتقد أنه يستقي رواياته من وقائع تاريخية، وقد كتب هذا الروائي القصة التالية باللغة الفرنسية. قال: لما نُفيت عائلة الملك "بوربن" من فرنسا وذهب هو إلى إنجلترا حاول وهو في لندن إشعال حركة

من الثورة والتمرد في فرنسا. لم يكن في فرنسا في تلك الأيام حكم ديمقراطي، بل كانت البلاد في فوضى وحرب أهلية. وربما حصلت هذه الواقعة قبل أن يتولى نابليون الحكمَ أو قريبا من ذلك. المهم أن الملك المنفي أرسل رجاله من لندن في سفينة ليشعلوا حركة تمردية في فرنسا. وكانت في الطابق السفلي للسفينة معدات وأسلحة، وكانت المدافع مربوطة بالسلاسل. فنـــزل أحدهم إلى ذلك الطابق لينظف المكان، فانخلعت إحدى السلاسل، فأخذ المدفع الذي كان مربوطًا بتلك السلسلة يتأرجح في السفينة، فخافوا أن تصطدم بجدران السفينة فتحطمها وتغرقها. فأسرع الناس لإنقاذ السفينة من الخطر. وكان ممثل الملك يشاهد ما حدث. فقفز الشخص الذي انخلعت السلسلة بخطئه ونجح في ضبطها معرّضًا نفسه لخطر شديد. فجمع ممثل الملك كل أصحابه، وقال: إن هذا الشخص قد قام بعمل بطولي كما ترون. ثم أخذ بيده أعلى وسام في فرنسا وقال: سأضع الآن هذا الوسام نيابةً عن الملك على صدره بسبب عمله البطولي هذا. ثم بعد أن وضع الوسام على صدره أمر قائد جيشه أن يأخذه ويعدمه قتلاً بالرصاص. وصادف أنهم حين اقتربوا من المرسى الذي كان عليهم أن ينـــزلوا فيه جاء الطوفان، وكان هنالك خطر كبير من غرق السفينة هناك. فقال ربّان السفينة: أنا بحاجة الآن إلى شخص مستعد للقاء الموت المحقق. فتقدم أحد الملاحين. فأمر الربان أن يأخذ ممثل الملك في قارب إلى ساحل فرنسا. وكان الطوفان على أشده، ولكن الملاح نجح في إيصال ممثل الملك إلى الساحل الفرنسي. وهنالك أخرج الملاح مسدسه وقال لممثل الملك: اعلم أنني لم أعرّض نفسي لخطر الموت عبثًا، بل فعلت ذلك لآخذ منك ثار أخي الذي أمرت بقتله بالرصاص. فقال ممثل الملك: إنك لم تتدبر في الأمر جيدا. لقد كان أخوك قد عمل عملاً واحدًا جيدًا وعملا واحدًا سيئًا، وقد جازيته على عمله الحسن بوضع أفضل وسام فرنسي على صدره، ثم أمرت بقتله بالرصاص على عمله السيئ. وأنت تعلم أنني ما جئت هنا إلا من أجل حماية مصلحة الملك، وكان لزامًا عليّ أن أتخذ كل نوع من الحيطة للنجاح في هدفي ولا أكترث لأي شيء يحول دون ذلك. كان أخوك قد ارتكب جريمة وكان ولائي للملك يفرض عليّ أن أقتله عقابًا على ما

فعل. فألقى الملاح مسدسه بعيدا وقال: لقد فهمت أن أخي كان على الخطأ وكان يستحق الموت على ما فعل.

إذًا، فلا بد من عقاب من يرتكب جريمة ذات تأثير بعيد المدى كي لا يركن الناس إلى التهاون والتكاسل؛ ولكن لا بد من العفو أحيانًا. ومن أجل ذلك تجد أن الله تعالى يأمر هنا بالعفو عن المجرم، بل لا يأمر بالعفو فقط بل يأمرنا أيضًا أن نصنع به المعروف، بينما يقول الله تعالى في مستهل هذه السورة نفسها: ألا لا تأخذنَّكم بالزانية والزاني رأفة عند تنفيذ العقوبة. فاتضح من ذلك أن الإسلام لا يأمرنا بالعفو في كل مناسبة، كما لا يأمرنا بالعقاب في كل مرة، بل يأمرنا بإنـــزال العقوبة أو العفو بحسب مقتضى الظروف، ذلك لكي لا يتجرأ الناس على ارتكاب الجرائم، كما لا تضيع فرص إصلاح البعض إذا كان العفو والصفح يؤديان إلى إصلاحهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

لُعنوا: لعَنه لعنًا طرَده وأبعدَه من الخير وأخزاه وسبَّه (الأقرب).

التفسير: أي أن الذين يتهمون النساء الشريفات البريئات إنما تلحقهم عقوبتهم الحقيقية من عند الله تعالى وهي نـــزول اللعنة عليهم في الدنيا والآخرة. واللعنة في العربية تعني البُعْد، فالمراد من تسمية هؤلاء "ملعونين" أن الشرفاء لن يريدوا أن يبقوا على صلة بهم، ويقولون إنهم يفسدون المجتمع وسيلطخون سمعة عائلاتنا أيضا لو كنا على صلة بهم.

كما أن الله تعالى لن يعطيهم يوم القيامة أي إنعام بل يعتبرهم مستوجبين للعقاب.